آفاق الـجـ يـ الـ بـ ي

الشكوى من سوء أحوال التعليم هي المفتاح لتحسُّنه، إنها بمثابة الألم الذي يحسّ به المريض، فيندفع في رحلة العلاج. والمرض الذي لا يصحبه ألم كثيرًا ما يتحول إلى قاتل من النوع الصامت. وإن كل وضعية تعليمية خالية من أي شكوى هي وضعية مريضة أو ميتة. وتعلمنا عقيدتنا وأدبياتنا أن أبواب التحسن تظل أبدًا مشرعة، وأن الله ـجل وعلاـ ما أنزل داءً إلا أنزل له دواءً.

إن آفاق التجديد أمام المؤسسات التعليمية في حالة من الاتساع الدائم، **وذلك لسببين:**

الأول: كثرة الجهات والعناصر التي باتت على علاقة بعملية التعليم أخذًا وعطاءً وتأثيرًا وتأثرًا؛ وذلك مثل وسائل الإعلام، وسوق العمل، والخطط التنموية... ومن المعلوم أنه كلما كثرت العناصر المكونة لشيء ما أو العناصر المتعلقة به؛ صار أكثر تعقيدًا. ومن طبيعة التعقيد أنه يتيح دائمًا خيارات وبدائل أكثر. ومع الخيارات والبدائل تتسع مجالات التغيير والتجديد.

الثاني: أن الجهات والعناصر والمعطيات المتعلقة بالتعليم في حالة من التغير المستمر، وهي من خلال تغيرها تتيح للتعليم تارة أن يتغير، وتفرض عليه التغيير تارة أخرى. ومع التغيير المرتجى والمفروض يصبح التجديد أمرًا لا مفر منه؛ بالنسبة إلى كل المؤسسات التعليمية التي ترغب في الاحتفاظ بدورها والقيام بمهامها. إن خبرة المدارس بنفسها تتحسن، ووعيها بقدراتها ومشكلاتها يرتقي، وسوق العمل الذي تُعِدُّ منسوبيها له في حالة من التغير المستمر، ومتطلبات سوق العمل من المدارس تتغير، واهتمامات الأهل والطلاب تتغير، ووسائل التعليم والإيضاح هي الأخرى تتحسن وتتطور. ووسائل الإعلام التي تنافس المدارس في التثقيف تتسع وتتكاثر. النظم الإدارية تسير في اتجاه البلورة والنضج

أكثر فأكثر... وكل هذه الأشياء على صلة وثيقة بالتعليم. والتغيير الذي يطرأ عليها يتطلب من المدارس على نحو آلي أن تتجدد في كثير مما لديها.

وهذه إشارات سريعة إلى أهم آفاق التجديد التربوي وآلياته؛ أسوقها في الحروف الصغيرة الآتية:

قول لا بد منه :

من التأمل في طبيعة أمزجتنا ونظرتنا للحياة نجد أن كثيرين منا مصابون بحمى الإنجاز السريع، فنحن نريد أن نتخلص من مشكلات تراكمت عبر قرون خلال سنوات قليلة؛ ولذا فإنه كلما وضعت خطة تربوية جديدة قام كثير منا بتقويمها بطريقة بدائية وحكموا عليها بأنها لم تؤد إلى حدوث أي تقدم!! إن تجديد التربية والتعليم ليس بمثابة تجديد أثاث منزل أو ترميم بناء؛ إنه تجديد في ذهنية القائمين على التعليم، وتجديد في عزائمهم وتجديد في المواقف التي تتخذها الأسرة والمجتمع والدولة من التعليم. وهذه الأمور تستغرق وقتًا طويلاً، وقد تستغرق عمر جيل بأكمله. ولكن علينا أن نكون حذرين من أن تؤدي هذه النظرة الموضوعية إلى إيجاد نوع من التراخي والتسويف، كما يحدث في كثير من الأعمال التي يستغرق إنجازها وقتًا طويلاً.

إن ما يحتاج إليه النهوض بالتعليم ليس طفرات تحديثية ينتظر الناس وقوعها، وإنما التزام دائم بالتطوير والتغيير، والاعتماد على الأعمال الجزئية التراكمية المستمرة؛ وهذا يعني أننا ننظر إلى التجديد على أنه هو الشيء الطبيعي، وليس في هذا مبالغة أو تَزيُّد، فما دام كل شيء يتعلق بالتعليم في حالة من التغير المستمر؛ فما مسوِّغ بقائه جامدًا؟! وبناءً على هذا فإن التغيير السريع الذي يجتاح كل جوانب حياتنا، يجعل كل خططنا ومقترحاتنا لتجديد التربية غير قادرة على حل جميع مشكلاتنا التربوية. وكل ما نرجوه من ورائها هو أن

تحرّكنا في الاتجاه الصحيح، وتشعرنا بأننا نتقدم ونتحسن. وهذا كله يجعلنا نخفف من النزعة المثالية التي تستولي على كثير منا؛ فالمدارس ستظل تشعر بأن لديها ميزانيات محدودة. وستظل تشعر بوجود نواقص في تجهيزاتها. كما أنها ستظل تُبتلى بمُعلِّمين ومديرين غير أَكْفَاء، أو لا يشعرون بالمسؤولية، أو يقومون بدور تخريبي في العمل التربوي. كما أن سيل الطلاب الذين لم يتلقوا في أسرهم تربية كافية، والطلاب العنيدين المُتعبين، والطلاب الذين يعانون من شيء من الضعف العقلي... إن سيل هذه الأَصناف من الطلاب لن ينقطع في يوم من الأيام؛ لأنه مستمد من تكوين إنساني شاءت له الحكمة الإلهية أن يدوم ويستمر.

وهذا يجعلنا نلفت النظر إلى نقطة مهمة؛ هي أن كثيرًا من المشكلات التي تعاني منها دور العلم؛ لا يعود إلى تقصيرها أو ضعف أدواتها، وإنما هي مشكلات تفد إليها من محيطها، ومن النظم القائمة في المجتمع. وهذا يجعلنا ـمرة أخرىـ لا ننتظر من المدارس حلولاً كاملة لمعاناتها؛ إذ من غير الممكن أن نتوصل إلى حلول كاملة في وسط غير كامل. سيكون شيئًا مقبولاً أن نستطيع رفع سوية الطلاب، وتحسين مستوى الأداء إلى الحد الذي يجعلنا نشعر بالرضا عند مقارنة أوضاعنا بأوضاع غيرنا؛ ممن نعتقد أنهم متقدمون علينا.

توسيع قاعدة المهتمين بالتعليم:

من المعروف على نحو عام أن كثرة المشتغلين والمهتمين بأي مهنة من المهن أو مجال من المجالات؛ يساعد على ارتقائه ونموه؛ حيث تكثر الأفكار الإبداعية، وتشتعل المنافسة وتكثر الخيارات. وقطاع التربية والتعليم لا يشكل شذوذًا عن هذه القاعدة؛ إذ كلما أمكن للقائمين على المؤسسات التعليمية جذب فئات

اجتماعية أكثر لمعاونتهم استطاعوا أن يعطوا أكثر، وأن يحلوا مشكلاتهم بطريقة أفضل.

أضف إلى هذا أن هذا القطاع أشبه بقطاع الزراعة، فهو لا يستطيع أن ينهض بنفسه من دون مساندة القطاعات الأخرى. وقطاع التعليم قادر على جذب المساعدة بقوة؛ حيث إن للسواد الأعظم من قطاعات المجتمع مصلحة مباشرة بارتقاء المدرسة، والذي يعني تحسن مستوى أبنائهم وتقدمهم. ولا تقتصر استفادة المدرسة من مساعدة الناس لها على الحصول على بعض الآراء النيرة أو بعض المساعدات المادية، بل تتجاوز ذلك إلى ما هو أهم؛ حيث إن من الممكن أن تجد من يعينها على أنفسها؛ من خلال تخليصها من الانغلاق والانكفاء على الذات الذي يسبب لها العفونة والتأسن؛ بسبب بقاء عيوبها بعيدة عن عيون الأهالي، وعن النقد الاجتماعي الذي لا يمكن للمصالح العامة أن ترتقي من غيره.

حتى تُوَسِّع المدرسة من دائرة المهتمين بأعمالها ومشكلاتها؛ فإن من واجب الجميع السعي إلى تشكيل مجلس في كل حي كبير وفي كل قرية، يتألف ذلك المجلس من بعض القائمين على المدرسة، بالإضافة إلى بعض الأشخاص من الدعاة والمثقفين والإعلاميين ورجال الأعمال والمحسنين والوجهاء وقدماء التربويين. وتكون مهمة ذلك المجلس تقديم النصح لإدارات المدارس التي في حيِّه أو بلدته، ومساعدتها على تذليل العقبات التي تواجهها، وجمع الأموال التي تحتاج إليها في تجهيزاتها وبرامجها، وقبل ذلك بلورة أهداف تعليمية مرحلية لها. وأنا واثق من أن ذلك ممكن إذا رحّبت به المدارس وجدّت في إيجاده.

التعبير بالنماذج:

قد تعَّود التربويون وغيرهم إذا اجتمعوا للحديث عن المستقبل، أو عن التعامل مع بعض المشكلات أن يستعرضوا إمكاناتهم الخطابية، وأن يعبروا عن المثاليات التي يؤمنون بها بالكلمات المنمقة. وبعد مرور عشر سنوات على حفلاتنا الخطابية نكتشف أن شيئًا لم يتغير، لكننا لا نكتشف أن الخطب الرنانة ليست هي السبيل الصحيح لتحسين الأحوال!!

إن العقل البشري لا يتعامل مع الكلمات بجدية كافية، وكأنه يستشعر أن النظام اللغوي يستطيع إلباس الخيالات أثواب الحقائق، وتقديم المستحيلات على أنها ممكنات، وهذا حقيقة. لكننا نعترف بصحة الأفكار والنظريات حين نراها مجسَّدة في هياكل ملموسة؛ ولذا فإن النماذج هي التي تقطع دابر الكثير من الجدل والشك. وعند التأمل نجد أن الأمم لا تتقدم كثيرًا عن طريق الأفكار المجردة إذا كانت فقيرة في النماذج الراقية. والعكس الصحيح.

المُعلِّمون والمديرون والطلاب يحبون أن يروا مدارس يتجسَّد فيها التفوق والتقدم والتحديث. وهذا ممكن إذا أنشأنا مدارس نموذجية تتعلم منها المدارس الأخرى ما ينبغي أن تتعلمه.

هذه المدارس يجب أن تكتسب ميزاتها الأساسية لا من الإمكانات المادية المتاحة لها، ولكن من كونها تتمتع بإدارة حديثة جيدة؛ وبمُعلِّمين صالحين أَكْفَاء، وبطلاب جادين يقدرون المسؤولية.

وإنما نقول هذا لأن المدرسة التي تكتسب تفوقها من التجهيزات التي لديها؛ لا تصلح أن تكون بؤرة للعدوى ونموذجًا للاقتداء؛ لأن من السهل على القائمين على المدارس الأخرى أن يقولوا: لو توفرت لمدارسنا الإمكانات التي توفرت لتلك المدرسة لكانت أفضل منها.

إذا استطعنا أن نقيم في كل مدينة مدرسة نموذجية حقيقية أمكننا أن ننظم إليها رحلات سنوية يقوم بها طلاب المدارس الأخرى؛ ليروا بأعينهم ما يمكن أن يفعله الوعي والإرادة والاهتمام، وليجروا مع إدارة المدرسة وطلابها ومُعلِّميها الحوارات التي تكشف عن ذلك. وعلينا أن نغمر تلك المدارس النموذجية بالأضواء، ونساعدها على المزيد من التفوق، ونضع بعد ذلك خططًا مرحلية لتعميم روح تلك المدرسة وأخلاقياتها ونظمها. علينا كي نفلح في ذلك ألا ننتظر المدارس لتبدأ الخطوة الأولى، فمسؤولية التطوير هي مسؤولية الجميع، والذين يستفيدون منه هم الأهالي في الدرجة الأولى، وعليهم أن يتحلوا بروح المبادرة. وإذا اتبعنا أسلوب: (من يعلق الجرس) في الانتظار والتهرب من المسؤولية، فلن نحصل على أي شيء. قد يكون هذا الأسلوب أفضل أسلوب للتطوير، لكن تحقيقه يحتاج إلى وقت، وعلينا أن نتيحه له.

الاستفادة من الوسائل التثقيفية الحديثة:

من شأن المزيد من التقدم العلمي والتقني أن يتيح المزيد من المرونة والسهولة في الحركة، كما أن من شأنه أن يوفر الكثير من الوسائل والأساليب والخيارات. وهذا ما نلمسه بالنسبة إلى الحقول الإعلامية والمعرفية عامة. إن موقفنا من وسائل الإعلام هو الذي يجعلها أداة منافسة للمدرسة، أو يحولها إلى أداة مُعِينة ومساعدة لها. ويجب أن نعترف أن المنافسة بين المدرسة والوسائل الإعلامية ستظل موجودة لما ذكرناه من قبل عند الحديث عن التحديات. ولكن بموقف ذهني جديد وبتطوير مواكب يمكن للمدارس أن تستفيد فوائد جليلة من التقدم العلمي في وسائل البث والاتصال. إن قليلاً من التأمل والعمل سوف يجعلنا ندرك أن البث الفضائي وشبكات المعلومات والجرائد والمجلات الإلكترونية تمكننا من إحداث ثورة في مجال التعليم، فقد صار في الإمكان تعميم الأفكار التربوية عبر الفضائيات على نحو لم تبلغه الأحلام في الماضي. وماذا نريد أكثر

من أن يتمكن المربون من لفت أنظار عشرات الملايين من المسلمين إلى قضية تعليمية أو تربوية مهمة؟! وماذا نريد أكثر من أن يتاح للمهتمين بالإصلاح التربوي مناقشة مشكلات التربية مع ملايين الناس عبر تفاعل حي مباشر؟!

قد صار بإمكان كل مدرسة أن تؤسس موقعًا على (الإنترنت)، وتوصل عبره لطلابها وذويهم كل ما تريده من معلومات وأفكار، وتتلقى في الوقت نفسه منهم مقترحاتهم وآراءهم تجاهها. وإلى جانب هذا فقد صار بإمكان الدول والهيئات التربوية أن تبث عبر الفضائيات كل المعلومات التي تنطوي عليها الكتب والمقررات الدراسية. وقد بدأت بعض الدول العربية ببث منظم لجميع مقررات سنوات الدراسة في مدارسها، من الابتدائي حتى الثانوي؛ مما يمكّن كلَّ مَنْ في البيوت من أن يتلقوا عين المعارف التي يتلقاها الطلاب في المدارس؛ وليس هذا بالشيء القليل.

قد يحتاج هذا إلى تشكيل مجلس ثقافي يجمع بين التربويين والإعلاميين في كل بلد، وتكون مهمته فتح حقول للتشاور والتعاون والتنسيق بين الطرفين من أجل التقريب إلى أقصى حد ممكن بين مضمون الرسالة التربوية والرسالة الإعلامية. وما هذا بالأمر العسير أو المتعذر؛ ولكنَّ داءنا الدوي الذي عانينا منه قرونًا، وما زلنا نعاني منه هو فقد الاهتمام؛ إذ إن كل الآفاق المتاحة للتطوير والتغيير تظل غير ذات معنى بالنسبة إلى أشخاص لا يكترثون بأي شيء!

تكوين الشخصية:

إذا تأملنا في أحوال الأمم المنحطة وجدنا أنها لا تعاني من نقص في العلم والخبرة والوسائل على نحو جوهري، ولكنها تعاني من تدهور في النظم التي تحكم حياتها؛ أي كل ما يمنحها سمة (أمة محترمة). وانهيار النظم السياسية والاجتماعية والأخلاقية في أمة أو مجتمع لا يحدث قبل أن يحدث نوع من

التراجع أو التدهور في شخصيات الأفراد؛ أي في الصفات التي لا تستقيم الحياة الفردية والاجتماعية من دونها. وإذا تأملنا في اهتمامات مدارسنا وجامعاتنا وجدنا أنها تكاد ألا تعطي أي وزن لقضية تكوين الشخصية المسلمة. ولا يعني هذا أن التربويين لا يعرفون أهمية ذلك، فهم يؤمنون به إيمانًا قويًّا، لكن ذلك لا ينعكس على برامج المدارس وأنشطتها وتدريباتها. ويبدو أن ذلك بسبب كثرة ما يتطلبه بناء الشخصية الجيدة من جهد ووقت ومال؛ إذا ما قورن بما ينفق على الكتب أو المختبرات...

لن ينتفع الطلاب كثيرًا من وراء مادة تحث على التحلي بالأخلاق الفاضلة؛ لأنهم يستمعون في خطب الجمعة وفي أحاديث كثيرة في نطاق الأسرة والأقرباء الكثير عنها. إن الذي يفيد حقًّا هو توسيع مجال الحوار مع الطلاب وإعطائهم فرصًا أكبر للتعبير عن همومهم وطموحاتهم، بالإضافة إلى ملاحظة دقيقة من المُعلِّمين لسلوك الطلاب ـولا سيما الصغار منهمـ حتى يشجعوهم على الاستمرار في أعمالهم ومواقفهم الجيدة، وينبهوهم على الأخطاء التي قد يقعون فيها. وهذا كله سيظل محدود الفائدة ما لم نفسح مجالاً أوسع للتدريب والتطبيق العملي؛ لأن أخلاق الطلاب الحقيقية لا تظهر على نحو جيد وهم صامتون يتلقون المعلومات من أساتذتهم، وإنما تظهر حين يُكلَّفون بأعمال يتطلب تنفيذها الجدية والمثابرة والصبر والدقة. والأخلاق الاجتماعية من نحو التعاون، والتسامح، والمجانية، والعمل بروح الفريق، والقيادة، وتحمل المسؤولية، والمبادرة.. وما شاكل ذلك ـ لا تظهر إلا حين يعمل الطلاب في مجموعات تحت إشراف مُعلِّميهم؛ ولذا كان من الأهمية بمكان إثراء اليوم الدراسي بالأنشطة والتطبيقات العملية المختلفة، كما أن من المهم دائمًا إيجاد آلية لتقويم تلك الأنشطة، وجعل نصيب جيد من درجاتها للجانب الأخلاقي خاصة، وجانب الشخصية عامة. ومع هذا وذاك ـوكما نقول دائمًاـ فإن تنشئة أبنائنا على هذه

المعاني تتطلب أن يلمسوها فينا معاشر الآباء والمُعلِّمين. وكم هو جميل أن نربي أنفسنا وأبناءنا في آن واحد، فتكون الثمار التي نحصدها وفيرة مضاعفة!

لا يتوقف كل تجديد على المال:

أود أن أقول قبل كل شيء: إن هناك مشكلات كثيرة لا يحلها إلا المال؛ إذ من الصعب من دون حد أدنى من أمور كثيرة تشكيل بيئة تعليمية مناسبة؛ حيث لا يمكن اجتذاب مُعلِّمين جيدين بمرتبات تقل عن مرتبات نظرائهم في المجالات الأخرى. كما أنه من الصعب توفير تعليم جيد في فصول دراسية مزدحمة جدًّا أو حارّة جدًّا... لكن نقول في المقابل: إن هناك مدارس كثيرة تُوفر لها كل الإمكانات المادية المطلوبة، ومع ذلك فإن مستوى خريجيها أقل من مستوى خريجي مدارس كثيرة لا تملك سوى القليل من الإمكانات. وأسباب هذا معروفة؛ إذ إن جودة التعليم مدينة لعدد معقد من العوامل؛ وحين يضعف بعض العوامل أو ينعدم؛ فإنه يمكن أن تعوض عنه القوة في عوامل أخرى؛ كما يعوض بعض الناس عن حرمانه من الموهبة بمزيد من الجدية والمثابرة.

والحقيقة أننا قد تعودنا أن نبحث دائمًا عن أمور نسوّغ عجزنا وتقصيرنا بها، ونحن نحاول من خلالها إقناع الآخرين أن انخفاض مستوى إنتاجيتنا هو أمر طبيعي. وهذا ملموس وواضح في كل مجالات حياتنا، وهو يجافي الصدق مع النفس.

وقد ثبت في بعض المقارنات والمسابقات الدولية أن اليابان تقدم تعليمًا مدرسيًّا أفضل مما تقدمه الولايات المتحدة الأمريكية، مع أن الفصول الدراسية في اليابان أكثر ازدحامًا بالطلاب، والواجبات التي يكتبها الطالب الياباني أقل. والمباني المدرسية اليابانية متقشفة جدًّا إذا ما قورنت بالمدارس الأمريكية.

وتأبى الهند إلا أن تقدم نموذجًا فذًّا لما يمكن أن يفعله الإصرار والإتقان ووضوح الرؤية في ظروف بالغة الصعوبة؛ فقد تبلور لدى قادتها ضرورة إيجاد مؤسسات علمية عالية المستوى؛ يتولى خريجوها قيادة المسيرة العلمية والتقنية في البلاد، فأنشأت معهد الهند التقني (IIT) مستندًا إلى نموذج المعهد الأمريكي التقني الشهير (MIT). ونظرًا لقلة المال الذي بين أيديهم لم يستطيعوا تشييد مَبانٍ خاصة بالمعهد، فحوّلوا مبنى قديمًا كانت تستخدمه بريطانيا في سنوات الاحتلال لسَجْن الهنود ليكون مقرًّا للمعهد. ومن اللافت والجدير بالتأمل أن هذا المعهد استطاع إمداد قطاعات المصارف العالمية وخطوط الطيران الكبرى وشركات الحاسب الآلي المتقدمة بأعداد من الموهوبين الهنود. وتقديرًا لموهبة أولئك الخريجين عهد إليهم سوق المال في (وول استريت) باستحداث أوعية استثمارية جديدة، تخضع لرياضيات بالغة التعقيد. وقد قالت مجلة (نيوزويك): (إن معاهد التقنية الهندية استطاعت أن تصنع جيلاً فذًّا من خلال تلقيهم برامج دراسية صعبة وذات مستوى رفيع؛ مما جعل خريجيها سادة حل المعضلات التقنية).

ويذكر أحد التقارير أنه نظرًا لشدة فقر الطلبة الهنود، فمن العادي جدًّا أن يشترك (25) طالبًا في كتاب واحد؛ حيث يقومون بتبادله وتصوير أجزاء منه. ومع ذلك يحقق هؤلاء الدارسون التفوق الواضح، والذي دفع بعض الجامعات الأمريكية ذائعة الصيت إلى أن تكتب إلى المعهد المشار إليه وفروعه العديدة عارضة منحًا دراسية لخريجيها لإكمال دراساتهم العليا فيها. بل إن جامعة (ماريلاند) أبدت استعدادها لاستيعاب كل الخريجين وإعطائهم منحًا للدراسة فيها!

قد آن الأوان لأن نبحث في قصورنا الثقافي، وقصورنا التربوي؛ لندرك مدى الحرمان الذي أصابنا بسبب تقاعس الهمم، وبسبب الفوضى والجهل

والأوهام التي كبّلْنا أنفسنا بها. إن العقبات المادية تظل عقبات يحسب حسابها، لكنها لا تؤثر تأثيرًا واضحًا إلا عندما يتعامل معها أشخاص لا يتمتعون بالإرادة الصلبة، وأشخاص عقدوا العزم على ألا يقوموا بأي عمل يؤثر في راحتهم وتمتعهم بالحياة!

رؤية أشمل:

المدارس والجامعات تقوم بأعمال مهمة للغاية، ويكفيها أنه لا يمكن لأي إنسان في زماننا أن يكون له شأن ونفوذ في الحياة العامة من غير أن يتتلمذ فيها أو يقبس شيئًا مما لديها. ونظرًا لتغير كثير من التحديات التي تواجه الأجيال الجديدة؛ فقد بات من المهم جدًّا العمل على أن نبني لديهم رؤية شاملة للحياة، تنطلق من أفق معتقداتنا ومبادئنا، ثم مما تراكم لدى العالم من خبرات قيمة.

كثيرًا ما تركز الجامعات والمدارس على التخصص الجزئي والمعارف المتناثرة، ولا تهتم بتشكيل نظرة كلية تمكّن الطالب من فهم عميق لأوضاع عصره؛ بما تشتمل عليه من فرص وتحديات ومخاطر وتحولات، فيتخرج الطالب وهو يعرف أشتاتًا من المعلومات حول قضايا وموضوعات لا تُحصى، لكنه فقير إلى حد الإدقاع في معرفته بمسؤولياته تجاه نفسه وأهله ودينه وأمته، وفقير في معرفة الأولويات التي عليه أن يتحرك على أساسها.

وإذا أردنا أن نكون صريحين مع أنفسنا، فإن علينا أن نقول: إن كثيرًا من المدارس والجامعات لا تستطيع في أوضاعها الحالية أن تقدم الكثير لطلابها في هذا الشأن؛ لأن كثيرين من أساتذتها ومُعلِّميها غارقون في تخصصاتهم، ويفتقرون إلى الانتباه والتركيز على أشياء عديدة مما يفتقر إليه طلابهم؛ ولذا فإن تلك المؤسسات مطالبة بأن تغني نفسها أولاً بالمفهومات والأفكار النهضوية المعاصرة قبل أن تشرع في عمل شيء لطلابها.

وإني أقترح إعداد برنامج للقاء حواري شهري، يقوم فيه واحد أو اثنان من المدرسين بالتحضير لقضية تربوية أو فكرية أو اجتماعية أو حضارية، ويتم طرح القضية أمام المدرسين، ويجري فيه حوار علمي وفكري معمق. ويمكن لطلاب السنة الأخيرة حضور ذلك الحوار والمساهمة في إثرائه. وقد نفذت هذا البرنامج بعض الكليات والمدارس، وكان له أثر عظيم في رفع درجة الوعي لديها.

كما أنه بالإضافة إلى هذا يمكن للطلاب الاستماع كل نصف شهر إلى أشرطة مسجلة تناقش بعض القضايا، ثم إدارة نقاش حول ما تم سماعه وتلخيص ما تمت بلورته. ويمكن بالإضافة إلى هذا وذاك تكليف بعض الطلاب بتلخيص بعض الكتب الجيدة، وعرض ذلك التلخيص أمام زملائهم خلال الأنشطة غير الصَّفِّية، ويشجَّع الطلاب على مناقشة الأفكار المطروحة.

إن هناك الكثير مما يمكن عمله من أجل توسيع قاعدة الفهم وتكوين رؤية شاملة لدى الطلاب، ولكن الذي يحول دون إدراك ذلك وتنفيذه هو نقص في درجة الوعي والاهتمام لدى كثيرين منا.

معاونة الأسرة في مهامها:

نحن نطمح إلى إعداد جيل بمواصفات عالية؛ فهل الأسر لدينا مؤهلةٌ للقيام بذلك؟

لا شك أن في الأمة الكثير من الآباء والأمهات الذين يقومون بواجباتهم التربوية على أحسن وجه؛ لكن هناك أيضًا الكثير من الأسر التي تمارس أساليب تربوية عفوية؛ لا تستند إلى أي أسس علمية، بالإضافة إلى أنها لا تملك إلا القليل من المفهومات والحساسيات التي تؤهلها لتقديم تربية معاصرة. وليس في هذا مبالغة، فنسبة الأمية التي تزيد على 70 ٪ في بعض الدول الإسلامية كافية بمفردها لجعل كثير من الأسر لا تعرف شيئًا عن الخبرات التربوية الجديدة.

إن تربية طفل لا تشبه تشييد بناء حيث نملك توقيت القيام به، إنها فرصة لا تتكرر، ولا يمكن إيقاف نفادها. والسنوات الخمس الأولى في حياة أي طفل تشكل أهم مرحلة تربوية في حياته، وينبغي ألا يسمح للأُسَر الجاهلة والأسر التي يغلب عليها الانحراف بالانفراد بتربية أبنائها في تلك السن الحساسة؛ فتؤذي أبناءها في البداية، والناس في مجتمعها في النهاية. والسبيل الذي يكاد يكون وحيدًا لمساعدتها؛ يتمثل في قيام الدولة، والمؤسسات الأهلية المختلفة، وفاعلي الخير ورجال الأعمال بتشييد المحاضن التربوية التي تثقف العقل، وتوجه السلوك، وتؤسس العادات الحميدة لدى الأطفال.

إن لدى قادة اليهود في فلسطين المحتلة قناعة راسخة بأن معظم الأسر اليهودية غير مؤهلة لتربية أبنائها التربية التوارتية المطلوبة؛ ولذا فإنهم لم يساعدوا الأسر على تربية أبنائها، وإنما شيدوا دور التربية التي تأخذ على عاتقها الحلول محل معظم الأسر، بل إن هناك آمالاً في تنشئة جيل لا يتم تحصينه من تأثير الأهل فيه فحسب، وإنما يتجاوز ذلك إلى أن يكون مؤثرًا فيهم، وناقلاً للأفكار والعادات الجيدة إليهم. ومن أجل تحقيق ذلك توسعوا توسعًا كبيرًا في بناء رياض الأطفال؛ حيث بلغت نسبة القيد فيها100 ٪ لسن (5) سنوات و 97 ٪ لسن أربع سنوات و87 ٪ لسن ثلاث سنوات. وإلى جانب ذلك أقاموا العديد من النوادي، ومدن الأطفال، وزوايا اللعب، ومراكز الشبيبة، ونوادي العلم والثقافة التي تهدف إلى تعريف الأطفال في سن مبكرة على الفنون التقنية بواسطة ممارسة الهوايات. ونحن نستطيع عمل الكثير من ذلك بالإضافة إلى إمكانية الاستفادة من المساجد في إقامة حلقات تربوية متميزة؛ يتعلم فيها الأطفال قراءة القرآن الكريم، ويتشربون من خلال معايشة المشرفين عليها القيم والآداب الإسلامية، ويطَّلعون من خلالها على بعض المعلومات المفيدة.

الشفافية نحو سوق العمل:

لا نختلف في أن للعلم ـبقطع النظر عن أي اعتبارـ فائدته المطلقة ومتعته الخاصة، بل إن الشغف الحقيقي بالعلم لا يتوفر في أكثر الأحيان لدى الذين يريدون من ورائه منافع مادية. ولكن علينا ـإلى جانب هذاـ أن نعترف أنه ما كان للعلم أن يتطور ويتقدم ـبالشكل الذي هو عليه الآنـ لولا أنه أضحى وسيلة مهمة جدًّا لكسب الرزق على المستوى الفردي، ولولا أنه مصدر هائل لثراء الأمم ونهوضها.

في أيامنا هذه صار الحصول على عمل جيد متوقفًا إلى حد بعيد على درجة ما يحصل عليه المرء من علم ومهارة وتدريب. ومن المؤسف أن يكون أكثر العاطلين عن العمل في وطننا العربي من خريجي الجامعات وحملة الثانوية العامة. وإذا تأملنا في أحوالهم وجدنا أن سبب بطالتهم لا يعود على نحو جوهري إلى عدم وجود فرص عمل، وإنما يعود إلى عدم أهليتهم لشغلها؛ وذلك لأن الإعداد العلمي والمهني الذي تلقوه لم يأخذ ـفي كثير من الأحيانـ بعين الاعتبار حاجات السوق، ولا الاتجاهات الوظيفية التي تمضي فيه؛ لهذا فإن جزءًا مهمًّا من التطوير التربوي والتعليمي يجب أن ينصرف إلى تطوير ما تقدمه المدارس والجامعات من تعليم وتدريب؛ حتى لا يقع المتخرج منها في براثن البطالة والعطالة.

وقد قامت بعض الجامعات العربية بتطبيق برنامج (من الجامعة إلى المصنع). وقد لقي ذلك صدى حسنًا في سوق العمل، وصارت الشركات والمصانع تتخطف خريجيها، وتدفع لهم أجورًا مجزية. كما قامت دُول عدة، منها ألمانيا واليابان بتطبيق برنامج (من المدرسة إلى العمل)، ويركز ذلك البرنامج ـكما في ألمانياـ على تنمية المهارات المهنية والشخصية، إلى جانب الأخلاقيات التي يتطلب العمل الجماعي التحلي بها. فعلى صعيد المهارات المهنية يركزون في

التدريس والتدريب على أساسيات الحاسب والقدرة على الطباعة، وعلى الاستعداد للتدريب، بالإضافة إلى التدريب على التفكير الجيد والإبداع. ويركزون على صعيد المهارات الشخصية على القدرة على وضع المقترحات وتنفيذها، وعلى الثقة بالنفس وامتلاك الطموح، بالإضافة إلى الاستعداد للعمل والتطور. ويركزون في مجال الأخلاقيات والمهارات الاجتماعية على حب العمل الجماعي، وعلى القدرة على التخاطب والقيادة والواقعية والقدرة على التكيف. وأعتقد أن مثل هذا البرنامج لن يجعل الطالب أكثر أهلية للحصول على عمل فحسب، وإنما سيطرد عنه الإحباط الذي يصيبه نتيجة شعوره بأنه يبذل جهودًا في تعلم علوم لا تساعده على شق طريقه في الحياة.

إن التعليم لدينا يتطور بسرعة سلحفاة، وحاجات السوق تتطور بسرعة طائر؛ ولذا فإن الخريجين يجدون أنفسهم دائمًا بعيدين عن فهم واقع العمل وتلبية متطلباته!

ويؤسفني القول: إن بعض الدول الإسلامية تشهد اليوم نوعًا من الردة عن الاهتمام بالتعليم؛ حيث يُخرِج كثير من الناس أبناءهم من المدارس في وقت مبكر؛ لأنهم وجدوا أنها لا تُعِدُّهم للحصول على عمل يرتزقون منه. وهذا يشكل -فيما لو استمر- خطورة بالغة على تقدم الأمة ونهضتها.

هذا ما أردت قوله في هذا الكتاب. ونظرًا لالتزامي بألا يكون حجم الكتاب كبيرًا؛ فإن هناك قضايا جوهرية لم أتمكن من طرقها، وقضايا أخرى مهمة مسستها مسًا خفيفًا، وآمل أن أتمكن من تناولها في المستقبل. وإني لأسأل الله -جل وعلا- أن يتقبله بقبول حسن، وأن ينفع به المسلمين؛ إنه ولي ذلك والقـــادر عليه.

وصلى الله وسلم على عبده ونبيه محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.